

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الإِعْجَازُ الْبَيَّانِي أَنْموذَجاً)

*Ammar Sassi's Efforts in Conceptual and Terminological Foundation:
Intentions and Methodology (Rhetorical Miracle as a Corpus)*

د . يوسف مقران *

أستاذ التعليم العالي

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله بتيبازة

تاريخ الإرسال: 2025/04/18	تاريخ القبول: 2025/05/26	تاريخ النشر: 2025/06/22
---------------------------	--------------------------	-------------------------

الملخص:

إن إنجاز الأستاذ الدكتور عمار ساسي في مجال الفقه اللغوي يتميز بالثراء والأصالة. فهو يشمل دراسته العميقة للآيات الصوتية في اللغة العربية، إلى جانب تحليله العميق للإعجاز البياني المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم. وهذا يمتد ليشمل الكنوز الدلالية والمعجمية الواسعة التي تتضمنها اللغة، والتي لا حصر لها. من المهم تسليط الضوء على المنهج الذي اعتمده في هذا العمل والأهداف الأكاديمية التي سعى لتحقيقها، سواء في مجال التعليم أو الإشراف على البحوث الأكاديمية. وفي هذا السياق، من الضروري التأكيد على إحدى القضايا الرئيسية التي تناولتها هذه المداخلة: إشكالية "التأصيل المزدوج"، التي تظهر بوضوح في أعمال الأستاذ ساسي. تشير هذه الازدواجية إلى اهتمامه العميق بالمصطلح (أو التسمية) وعلاقته بالمفهوم الأساسي الذي يترتب عليه. وقد لاحظنا مثلاً بارزاً لهذا التأصيل الذي يشمل دراسة الإعجاز البياني من حيث المصطلح والمفهوم..

الكلمات المفتاحية: عَمَّار سَاسِي . الإِعْجَازُ الْبَيَّانِي . التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي .

المقاصِد . المنهج .

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الإِعْجَازُ الْبَيَّانِي أَنْمُودَجًا)

Abstract:

The linguistic philological achievement of Professor Dr. Ammar Sassi is rich and significant, stemming from a deep contemplation of one of God's signs in His creation. His work is primarily focused on the phonetic secrets of the Arabic language, delving into its rhetorical miracle, particularly in connection with the Quran. It also spans the infinite semantic and lexical treasures inherent in this crucial language. What is important to explore regarding this remarkable achievement is the methodology behind it and the objectives that he pursued from the beginning of his academic teaching and supervision. From this perspective, we can represent this great image through a specific point that our paper will address, focusing on the dual foundational issue that characterizes this distinguished scholar's writings. By duality, we refer to what we have observed in our esteemed professor's work, namely his preoccupation with terminology (or naming) and its corresponding concepts, which undergo simultaneous and sequential developments that he consistently explored in parallel with the foundational concern. We have observed an example of this foundational work, which addresses the rhetorical miracle in both its terminology and concept. We traced its contextual acquisitions in order to understand the foundational process and grasp how it operates and defines its dimensions.

Keywords: Ammar Sassi; Rhetorical Miracle; Conceptual and Terminological Foundation; Intents; Methodology..

*** **

مقدمة

إنَّ المنجَزَ الفقهِي اللغوي للأستاذ الدكتور عمار ساسي ثريٌّ ووجيهٌ، وهو نابغٌ من هاجس التأمل في واحدة من آيات الله تبارك وتعالى في خلقه، إذ يتوزَّع على ما استأثر باهتمامه من الأسرار الصوتية للغة العربية، وتعمَّق من إعجازها البياني في اتصالها بالقرآن العزيز أساساً؛ مروراً بما انطوت عليه هذه اللغة المصيرية من الكنوز الدلالية والمعجمية التي لا حصرَ لها. وما يهمُّ استطلاعُه بشأن هذا المنجَز النوعي هو المنهج الذي يقوم عليه والمقاصد التي سعى إليها من بدايات صاحبه في التعليم والتكوين (الإشراف) الأكاديميَّين: من هذا المنطلق، يجدر بنا تمثيل هذه الصورة العظيمة بنقطة جزئية

تطرح ورقتنا من خلالها إشكالية التأصيل المزدوج الذي شغل كتابات هذا الباحث الأصيل. ونقصد بهذه الازدواجية ما لاحظناه في أعمال أستاذنا الجليل من انشغال بالمصطلح (أو التسمية) وما يقابله من المفهوم الذي يخضع لَتَمَفُّصَاتٍ تزامنية وتعاقبية طالما وقف عندها بالموازاة مع الهم التأصيلي. وقد وقفنا عند نموذج من هذا التأصيل الذي طال الإعجاز البياني مصطلحاً ومفهوماً، وتتبعنا تحصيلاته السياقية بهدف استيعاب تلك العملية التأصيلية، والإحاطة بكيفية اشتغالها وضبط أبعادها.

1 في مفهوم التأصيل

إن التأصيل الذي نعينه هنا هو ضربٌ من التحديث والتمتين والتقدير. وأبعد ما يكون عن التأصيل الهاجسي أو المعاكس. إنَّ اللسانيات الموسومة حديثاً بالعربية، مبنيةٌ جلُّها على التأصيل السلبي النابع من موقف الضعف. وهو حَمْلُ القديم على مَقاس الحديث، وليس العكس كما قد يوحي تأثيل التأصيل أي اشتقاقه من المنشأ والأصل الولود والمنبت. أما ما يُزعم من اجترار الحديث للقديم إنما هو وهمٌ. ولنا حول هذا الاتجاه رأي تفسيريٌّ مؤداه أن تلكم اللسانيات بدل أن تقوم على أساس من قراءة التراث اللساني العربي، والاجتهاد في تأصيله من حيث إبراز انتمائه الأصيل الذي لا يتنافى مع سُنَّة الله في خَلقه وكونه، نلفي جلَّ مَنْ خاض فيه لم يستوف هذا الشرط، فحتى عبد الرحمن الحاج صالح، الذي كان يُتوقع أن يُستثنى من الوقوع في هذا المأزق، ونظراً لشدة اهتمامه الواعي باللسانيات الحديثة من حيث الأصول والمرجعيات والدرس المقارن، وابستمولوجيا اللسانيات الحديثة؛ فقد خضع لهذا الضرب من التأصيل ولكن من حيث لم يصدر عن الإعجاب والاندهاش بالغرب، ولم يقصُد إلى تبرير القديم بقدر ما وقع في ذلك دفاعاً عن التراث العربي الذي طالما كان يظن أنه انهم بالتبعية وأقصد التراث اللغوي العربي. هذا لا يعني أن هذا الأخير لم يعمل بالتأصيل الانتمائي، إذ كان من أبرز المنافحين عن أصالة الدرس النحوي العربي، ولاسيما فيما قام به من تنفيذ أطروحة تأثره بالمنطق اليوناني.

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الْإِعْجَازُ الْبَيَّانِيُّ أَنْمُودَجًا)

وأظن أن المشكلة التي حالت دون تحكُّم عبد الرحمن الحاج صالح بزمام التأصيل، تتكون من عدة حدود . وهذا ليس موضوعنا، وقد كان أحد مقاصده من وراء عملية التأصيل التوجُّه إلى نوعٍ من قارئٍ لم يكن مُطلِّعاً بعدُ على مضمون اللسانيات الحديثة. هكذا نُلفيه في بعض أوراقه التي شارك بها ونشرها لاحقاً مشحونة بهوس التأصيل الذي أبعدته عن مشواره المبدئي القاضي بتبرير وجود علوم اللسان بالمفهوم الحديث عند القدماء من العرب أو من أسماهم بالأوائل، مما جعله يبدو كثير التعصب لهؤلاء.

أما أستاذنا عمار ساسي، فقد مارس تأصيل النسبة والانتماء بطريقة سلمية وبهدوء ونشاط أيضاً، لهذا يمكن تعريف التأصيل كما أتصوره بناءً على مساعي أستاذنا على أنه إعادة بناء تصور ناضج حول مسألة لغوية معينة، من باب التحيين والتحقق، والتحصيل برصد خطوات نشأة المفهوم وتطوره وما يكون قد صاحبه من ظهور المصطلح ومحاولة الوقوف عند تمفصلات السياق والتناصية المختلفة.

2 في مصطلح الإعجاز القرآني

1.2 الإعجاز البياني

من هذه الزاوية، فإن مفهوم الإعجاز البياني الذي اهتم به عمار ساسي، هو حصيلة التفكير اللغوي البلاغي الفقهي (نسبةً إلى فقه اللغة وفقه الدين الإسلامي)، قلت حصيلة التفكير في كتاب الله القرآن العزيز، التفكير الذي لا يزال يشتغل ويعمل إلى يومنا، وعليه فإنه انتهج في التأصيل كما طبقه، منهجا توليفياً لا تلفيقياً بين التراث والحداثي. ومَقْصُدهُ الأولي في ذلك . كما قال بذاته في مقدمة كتابه " الإعجاز البياني في القرآن: دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات " الصادر عام 2003، حيث ينطلق من مقولة نرى أهمية وضرورة العمل بها، مؤداها أن « البحث في التراث عمل كبير والبحث في القرآن أكبر، والانبهار بالبحث الغربي يكبر كلما كان الاهتمام بالبحث في التراث يصغر، ويكاد هذا الانبهار ينعدم وتوشك هذه التبعية تنتهي طالما تعمق البحث في التراث العربي الأصيل باستمرار، إذ ساعتها تظهر الحقيقة العلمية ويتجلى حجم النتائج

العلمية الغربية بحقيقته، وقديما قالوا: اذا عُرِف السبب بطل العجب ¹. فأهمّ عبرة نظفربها على إثر قراءة هذا المقتبس هي دعوة إمامها إلى تعميق الفكر في التراث قبل التعطش إلى ما نتلقاه من الغرب. ويبين أبعاد المفارقة التي أشار إليها في نصه هذا، وأسبابها وخلفياتها بتنبية آخر مفادُه: «إننا نقول هذا من منطلق الثقة بالنفس، واليقين العلمي والإنصاف للحق. والقرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله والشامل لكل العلوم والمعارف كبيرها وصغيرها ودقيقها. والبحث فيه لا ينتهي لأن أسرارها لا تنقضي». هكذا بإطلاق شرارة هذا البيان ينطلق البحث من أرومة صريحة المجازات باتباع سيرة التاصيل وفق منهج واضح المعالم وفي إطار مقاصد نقف عن بعضها بعد حين.

2.2 الكمال البياني

ويدعوه مصطفى صادق الرافعي أيضا بـ (الكمال البياني)، كما يتضح من قوله هذا:

« ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العرب على لغة واحدة، بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهل كل لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مرغبًا؛ إذ يرونها كمالًا لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية، ومما وقفوا على حد الرغبة فيه من مظاهرها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه. ومن شأن الكمال المطلوب إذا هو اتفق في شيء من الأشياء . كهذا الكمال البياني في القرآن . أن يجمع عليه طالبيه مهما فرقت بينهم الأسباب المتباينة، والصفات المتعادية؛ ولولا ذلك ما سهل أن تنقاد الجماعات في أصل تكوينها منذ البدء انقيادًا يكون عنه هذا الأثر الوراثي في طاعة الأمم لشرائعها؛ ثم ملوكها وأمراءها، مع ما تُسام الأمة لذلك في باب من أبواب الإمرة والحكم والتسلط. كما أن من شأن النقص إذا تمثل في شيء أن يزيد في تفريق من يفترون عنه إذا توهموه، حتى تتسع بينه وبينهم الغاية ². »

لقد قسم البروفيسور عمار سامي هذا الإعجاز إلى أقسام تندرج كلها في ثنائية اللفظ والمعنى، وأهم ما أتى به من جديد هو عودته إلى ما أسماه الباقلاني بـ (إعجاز المعاني)، مع أن هذا الضرب من الإعجاز تناولته عائشة عبد الرحمن. . « إعجاز المعاني

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الْإِعْجَازُ الْبَيَّانِيُّ أَنْمُودَجًا)

التي تضمّنها، في أصل وضع الشريعة والأحكام، والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، ثم اتجه بكل هذا إلى المعاني والأحكام التي جاءت على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع. وذلك أنه قد علم أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخيّر الألفاظ لمعان مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة³.

3.2 روح التركيب وحقيقة الإعجاز

فهذه السمة التركيبية الأسلوبية نجد كل باحث يحاول أن يطبعها بميسم يخصه، على إثر تسميتها من قبل الجرجاني بالنظم، هذا مصطفى صادق الرافعي يدعوه روح التركيب: «لا جرم كان القرآن في نظمه وتركيبه على الأصل الذي أومأنا إليه: نمطاً واحداً في القوة والإبداع، ولا تقع منه على لفظ واحد يُخل بطريقته، ما دامت تنعطف عليه جوانب هذا الكلام الإلهي وما دام في موضعه من النظم والسياق، ٢٠٢ فإذا أنت حرّفت ألفاظه من مواضعها، أو أخرجتها من أماكنها، وأزلتها عن روابطها حصّلت معك ألفاظاً كغيرها مما يدور في الألسنة ويجري في الاستعمال، ورأيتهَا — وهي في الحالين لغة واحدة — كأنما خرجت من لغة إلى لغة، لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه، بيد أنك إذا تعرّفت ألفاظ اللغة على هذا الوجه في كلام عربي غير القرآن، أصبت أمراً بالخلاف، ورأيته لكل لفظة روحاً في تركيبها من الكلام فإذا أفردتها وجدتها قريبة مما كانت؛ لأنها هي نفسها التي كانت من روح التركيب، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روحٌ خاصة بالنسق والنظم، فيعطي كلّ لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللغة معنى في الأفراد، حتى إذا أبنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت، وتبيّنت فيها الوحشة والقلة شبيه الذي يعرض للغريب إذا نَزَحَ عن موطنه وبانَ من أهله، وكان كل ذلك فيها طبيعياً؛ لأن حقيقة التركيب إنما هي صفة الوحي في هذا الكلام.

وهذه الروح التي أومأنا إليها «روح التركيب»، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس؛ ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وُضع

جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين؛ إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفةً واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فيما وراء ذلك متعدّد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصّل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال، إلى نحوها مما يدور عليه ⁴. «ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تُعْتَبَر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يُسَوِّغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، أو ما يقال فيه إنه تَعَوُّث واستراحة. كما تجد من كل ذلك في أساليب البلغاء، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرّت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يُشَبَّه أن يكون من هذا النحو الذي تمكنت به مفردات النظام الشمسي وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات متناصفة متقابلة بحيث لو نُزِعَت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها، ثم أدير لسان العرب كله على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لم يتهياً ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة، كما سنبينه في موضع آخر، وهو سرٌّ من إعجازه قد أحس به العرب؛ لأنهم لا يذهبون مذهباً غيره في منطقهم وفصاحة هذا المنطق، وإنّما يختلفون في أسباب القدرة عليه ومعنى الكمال فيه، ولو أنهم وجدوا سبيلاً إلى نقض كلمة من القرآن لأزالوها وأثبتوا فيه هذا الخطأ أو ما يشبه الخطأ في مذهبهم؛ إذ كان من المشهور عنهم مثلاً هذا الصنيع في انتقادهم وتصفّحهم بعضهم على بعض في التحدي والمناقضة ⁵.

3 من التأريخ إلى التأصيل

ينطلق الأستاذ عمار سامي في الفصل الأول من الباب الأول في تناول تاريخ الاعجاز القرآني مفصلاً ولكن أوجزه وركز فيه على أهم الأحداث والتطورات التي كان لها الأثر الأقوى في الخط التاريخي لقضيه الاعجاز ذلك انه تناول هذا الجانب مفصلاً في رسالته العلمية السابقة اي رساله ماجستير وما يميز الدراسة الاولى عن الثانية ان الاولى كانت دراسة عامة تمس كل ما تحدث او الف في او الف في الاعجاز القران قليلا او كثيرا منذ عهد النبوة الى العصر الحديث وكان الهدف منها واستبيان واستخلاص وجوه الاعجاز

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الْإِعْجَازُ الْبَيَّانِيُّ أَنْمُودَجًا)

القرآني اما الثانية فهي دراسة خاصه تمس المصطلح بالتحديد وتبحث في تاريخه من أول ظهور الى اليوم وكان الهدف منها هو الوصول الى تحديد شامل واسع ودقيق مدلول المصطلح بدءا بالإعجاز والمعجزة في دائرتيها العامة ومرورا بالإعجاز القرآني والمعجزة القرآنية في دائرتهم الخاصة⁶.

يبدأ التأصيل للمصطلح عند عمار الساسي من وقوفه عند تاريخ المفهوم في حد ذاته حيث يدعو الناظر إلى التأمل في هذا التاريخ لكي يلحظ كيف أن كلمة إعجاز بهذه الصيغة والحروف لم تظهر في عهد النبوة ولم يتداولها الصحابة على ألسنتهم. ذلك أن بداية الدعوة كانت توجب ذلك وجوبا حيث كان الناس مشغولين بمعرفة الرسالة الجديدة في عقيدتها وأخلاقها وشريعتها. والأستاذ عمار ساسي يرى أن هذا الشغل أولى وأكبر وأسبق من أي شغل آخر. لكن مضمون المصطلح كان متعارفًا ومتداولًا وموظفًا منذ اللحظة الأولى حين نزول جبريل عليه السلام في غار حراء وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم: «اقرأ»⁷. لعل صلة القراءة هذه وربط كل شيء بالقرآن هو ما حدا بأستاذنا الجليل إلى الوقوف عند الإعجاز البياني والإعجاز البياني العلمي في دائرتيها الخاصة. بيدَ أن ما اضطر الأستاذ إلى بذل هذا الجهد اضطرارا. كما يقول. هو المنهجية العلمية والمرحلية الموضوعية في البحث، إذ يرى أنه «لا يمكن الوصول الى تحديد المفهوم الشامل والواسع والدقيق والجديد للإعجاز القرآني إلا بأمرين أساسيين الأول هو المرور على جسرتاريخ المصطلح والثاني هو التحري والتمحيص والتدقيق والتثبيت من النتيجة قبل إصدار الحكم والخروج بالرأي الجديد»⁸.

يقول بهذا الصدد: «إن الباحث الجاد والمتخصص في جمع التعاريف وإجراء المقارنة بينها في أي علم من العلوم الحديثة يلحظ وهو في عمله هذا بعض التباين في مدلولات وصيغ التعاريف التي يُبحث فيها زياده ونقصانا وقد يلحظ أيضا بعض الاتفاق فيما بينها وقد يصطدم ببعض الاختلاف الصريح بينها كذلك، وسرُّ ذلك عندي أن كل تعريف هو في الحقيقة تعبير وترجمه عن مبلغ من العلم وعن وجهة نظر خاصة في

مرحلة تاريخية ما بغض النظر عما إذا كانت هذه الرؤية أو النظرة ناضجة أم قاصرة، ضيقة أم واسعة، علمية أم ذاتية. وهنا تظهر لنا بوضوح أهمية العلاقة الوثيقة بين الجانب التاريخي للمصطلح وبين الوصول إلى تحديد المفهوم الدقيق له. وفي هذا الصدد كان للمنهج التاريخي العلمي المستنبط من التتام بين نظريه ابن جني التي بلورها في الخصائص ونظرية الجرجاني التي بلورها في دلائل الإعجاز في علم المعاني فضلٌ كبيرٌ تمثّل في الوصول إلى نتائج هي التي انتهى إليها الأستاذ ساسي وأضاف إليها بهذا الصدد جملة من المسائل رأى أهميتها كبيرة في تحقيق الغرض العلمي المطلوب، الأول منها هي وجوب التحري والتمحيص والتدقيق في تعريف المعجزة والمعجزة القرآنية والإعجاز القرآني لأنه يرى أن جلّ التعاريف التي أوردها العلماء والمؤلفون عبر الخط التاريخي للمصطلح قد طُلّيت بصفه التعميم لا التخصيص حتى صار الواحد منا لا يفرق بين المعجزة في الدائرة العامة والمعجزة الحسية في الدائرة الخاصة والمعجزة القرآنية في الدائرة الأخص»⁹.

وهكذا استخلص من ذلك كله أن الإعجاز والإعجاز القرآني على وجه الخصوص معتبراً، فيه جانب من التعميم. وتأكيداً لهذه الفكرة يقول في مؤلّف آخر، وهو " المدخل إلى النحو والبلاغة: في إعجاز القرآن الكريم ": « لقد جاء في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي بقلم الأستاذ الدكتور محمد شاكر مبينا وجه التحدي فيما يلي: إنما هو تحدٍ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك فما هو بتحدٍ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزله ولا يعمل ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان »¹⁰.

وهنا نلفي الأستاذ ساسي ينبري من باب إيضاح ما يتحفظ فيه حيال هذا المذهب فيقول: « وفي هذه المسألة وقفة تقتضي المناقشة وبياناً لرأي فأقول إن التحدي القرآني لم يكن خاصاً بنظمه وبيانه ولفظه فقط وإن كان هذا الوجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم إنما كان عاماً فقد تحداهم بلفظه ونظمه وبيانه وهم فرسان البلاغة والفصاحة وفن القول كما تحداهم بتشريعه وأحكامه وقد كان لهم تشريع يخص مجتمعهم كما تحداهم بأخبار الغيب المكنون وقد كانت فيهم شيم العرافة والسحر

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الْإِعْجَازُ الْبَيَّانِيُّ أَنْمُودَجًا)

والخرافة وادعاء علم الغيب كما تحداهم ببيان شرائع وقصص الأمم السابقة وقد كانت عندهم الكتب والصحف الأولى المنزلة ويؤكد هذا الرأي قوله تعالى « لا يأتون بمثله »¹¹.

4 المعجزة والصرفة

وفي هذا السياق، راجع النقاش الذي أثاره بعض العلماء حول الفرق بين المعجزة والصرفة. وما يهمنا من هذا هو الطرح التأصيلي الذي أفاده أستاذنا، بحيث وقف في كتابه الإعجاز البياني موقف المصحح لبعض سوء الفهم الذي اعترى ظن هؤلاء وحتى محقق إعجاز القرآن للباقلاني، وهو أحمد صقر؛ نقتبس منه ما يأتي: « يقول الإمام الباقلاني أول كتاب أفرد في الإعجاز وتردد فيه الجاحظ بين الصرفه على غرار أستاذه النظام وبين إعجاز القرآن بنظمه وغريب تأليفه، كتابه هذا في (نظم القرآن) لم يصل إلينا وقد انتقده الإمام الباقلاني بقوله: " وقد صنف الجاحظ نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ». وهنا يرى الأستاذ عمار ساسي أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي والأستاذ أحمد صقر يؤكدان أن الإمام الباقلاني لم يُنصف الجاحظ لم ينصف الجاحظ في نظمه ما دام كتاب الجاحظ مفقودا فمن العسير الحكم عليه ومن اليسير أن نعطي حكما عاما على رأي الجاحظ في نظم القرآن كمعجزه بيانية من خلال الصور البيانية التي أبرزها في كتابه البيان والتبيين والحيوان وبعض الكتب القديمة التي تشير إلى رأي الجاحظ في الإعجاز ومن خلال رسالته حجج النبوة وحديثه عن إعجاز القرآن فيها والأهم هو أن الجاحظ من القائلين بالنظم أحيانا والصرفة أخرى. يقول صاحب فكرة إعجاز القرآن: (ولعل قول الجاحظ في البعض بالصرفه هو من باب الاستسلام والخضوع والانذلال لسحر القرآن وعظمه بيانه، وعجزه عن الإفصاح بذلك »¹². وهي حسب تصور عمار ساسي حالة يصل إليها كثير من العلماء وكبار الشيوخ عند إدراج حلاوة القرآن، وسحره وإعجازه عن طريق الذوق الشخصي، ومن هؤلاء العلماء الكبار الرماني القائل بالصرفة

والنظم والغيبيات. ونجد الإمام الخفاجي هو أيضا يقول بالصرفة والنظم مع البلاغة والفصاحة ومعه الإمام الراغب الأصفهاني. ويرى الأستاذ هذا بناءً على أن مُوجب الصرفة هو تأثير القرآن في نفوس مُنكري إعجازه، وإن جنون التحدي في نُكران الإعجاز البياني للقرآن الكريم دفع النظام ومَن تبعه إلى إيجاد صيغة يخلقونها على مذهبهم فكان القول بالصرفة وهذا برأي الأستاذ ساسي إقرار ضمني لمنكري الإعجاز بقوه أثر القرآن وسحر بيانه وإعجازه من حيث يشعرون أو لا يشعرون. وقد كان الجاحظ يختلف عن أستاذه النظام المنكر لنظم القرآن كمعجزة، والقائل بالصرفة¹³.

والصَّرْفَةُ أو الصَّرْفَةُ: مصطلح ينسب إلى إبراهيم بن سيار النظام من المعتزلة، يريد به أن الله صرف قلوب العرب عن معارضة القرآن، أو إنّ الله صرف عنهم القدرة، والعلوم التي تمكنهم من معارضته، فكان في مقدورهم معارضته، لكن عاقبهم عنها أمر خارجي، فصار معجزة كسائر المعجزات، ولو لم يصرفهم عن ذلك، لجاءوا بمثله، ويقصدون بهذا إبطال إعجاز القرآن. وهو أيضاً رد الشيء عن وجهه، ومعناها عند القائلين بها في هذا الباب، أن الله تعالى صرف همم الخلق عن معارضة القرآن الكريم مع تحديه لهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهو رأي فاسد وكلام باطل يلزم منه أن القرآن الكريم ليس بمعجز في حد ذاته، وأن المعجزة هي المنع والصرفة.

5 سيرورة التأصيل: من التصاقب إلى التحاقل

في هذا الكتاب دائماً يمعن الأستاذ في سيرورة التأصيل باعتماد التصاقب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني مصطلح وضعه ابن جني وجعلته مقابلاً لما هو شائع عند الغرب بـ Transposition épistémologique) الابدستيمي المفهومي والتعويل على التحاقل الاختصاصي أو ما يدعى حالياً بالبينية، وتبني مصطلح الغير بالاقتباس والتضمين؛ قائلاً: « وللنظم عند الجرجاني صلة بالمنطق أيضاً بحيث إذا درسنا النحو دراسة فلسفية، نجده من أشد ضروب الميتافيزيقا عمقاً لأن النحو عندما يُظهر تركيب الكلام إنما يُظهر تركيب الفكر، وطريقة تسلسل المقولات التي عند طريقها نفهم العالم. وهذه إشارة

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الإِعْجَازُ الْبَيَّانِي أُنْمُوذَجًا)

طبعاً إلى ما صار اليوم يسمى بالنظرية النسبية ولها صلة غير مباشرة بالكليانية أو الكلية.

هكذا إذن استطاع الأستاذ أن يجعل من سعيه إلى شرح موقف الجرجاني من الإعجاز البياني مسلماً إلى عرض نظرية النظم لكي ينتهي مطافه إلى القول « وبالنظم ليس بغيره يتمثل إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني، ويشهد بأن جل العلماء عظموا شأن النظم وأعطوه قدره وأهميته. وفي هذا يقول الجرجاني: " وقد عَلِمْتَ إطباقَ العلماء على تعظيم شأن "النظم" وتخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضْلَ معَ عَدَمِهِ، ولا قَدْرَ لكَلَامٍ إذا هو لم يَسْتَقِمْ لَهُ، ولو بَلَغَ في غَرَابَةٍ معناه ما بَلَغَ " ¹⁴ «

وبعد هذا التحقُّق يقف الأستاذ موقف المؤصِّل، مستخلصاً هذه القراءة: « ومن هذا الذي ذكر كلّه، يتضح أن الإمام عبد القاهر أقام ظاهرة النظم على أساس فكرة ذات أصول ونظرية فلسفية في ميدان التعبير الفني، وأنها المقياس للجودة والتقويم، وقد اختلف بذلك عن سابقيه، فهم تحدّثوا عن النظم كشيء ملموس في عبارة القرآن الكريم دون إبراز حقيقة النظم كفكرة ونظرية ذات معالم واضحة » ¹⁵.

6 تأصيل نظرية النظم

هكذا، فإن للنظم عند إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني، معنيين: المعنى اللغوي والمعنى الفني، أما اللغوي فهو ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق ويسميه أيضاً بالنظم في الحروف وهو التوالي في النطق دون مراعاة ما يرسم بمقتضى العقل الذي يتطلب التحدي في النظم. والمعنى الفني يسميه بنظم الكلم وحقيقته أنك تقتفي في نظمها (أي الكلم) آثار المعاني على الوجه الذي يقتضيه العقل، وهو تعريف يعكس الصلة المتينة بين المعنى وترتيبه في النفس وبهذا يقرب مبدأ. الكلمة صوت النفس. ويؤكد هذا معنى قوله إذا تغير النظم فلا بد حينئذ أن يتغير المعنى. وفي تحديد مدلول النظم عنده يقول في الدلائل: « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه

علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه « ص.35. وإلى جانب هذا فإن للنظم عند عبد القاهر الجرجاني صلة وثيقة بالنحو ومعانيه وقد اعتبر عبد القاهر الجرجاني الذين أساءوا فهم النحو بمفهومه البلاغي، [ومركب " فهم النحو بمفهومه البلاغي " من صياغة الأستاذ ساسي] الذي يواصل قائلاً: « واعتبر إساءتهم (أشبه بأن يكون صدأً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه، وذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه). أي أن النحو في نظرتهم . يواصل الأستاذ . هو دعامة الكلام العربي، وهو في الكلام كالمالح في الطعام. ويؤكد الإمام أكثر من هذا في قوله: (هذا وأمر النظم في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنت ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب، في غاية القوة والظهور). وبقوله ونظرتهم هذه كأن المعاني البلاغية نبتت في حقول النحو، لذا أعطت نظرتهم هذه علم النحو شيئاً من الجلال، لأنه العمود الفقري للكلام العربي واكتسبت هذا الإجلال أيضاً لنشأته في كنف القرآن الكريم.

وبعد هذا العرض الوجيز عن الإعجاز البياني عند الإمام الجرجاني مبسّطاً المفهوم ومعتمداً ما يبدو في الظاهر أنه منهجاً تاريخياً، يتساءل البروفيسور عمار ساسي من خلفية ابستمولوجية معرفية ومقارنة بامتياز: ماذا حصل للإعجاز بعد الجرجاني ؟ هل حصل جديد وتطور أم بقي الآخرون مرددين ما قاله الأولون ؟ ليقطع الشك باليقين مصرحاً: « وبعد الإمام الجرجاني جاء الإمام الزمخشري، والحقيقة أن الإمام الزمخشري لم يكتب كتاباً مستقلاً خاصةً ببيان إعجاز القرآن الكريم، وإنما أخذ يكشف عن الأسرار والنكت والدقائق البلاغية التي يتضمنها نظم المعجزة، وذلك أثناء تفسيره للقرآن الكريم، ومعنى هذا . يقول الأستاذ . أنه ابتداءً من حيث انتهى السابقون، ولعله رأى السابقين قد أطلوا الكلام في إثبات إعجاز القرآن وبيان وجوهه، وانتهى الأمر إلى أن الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي وقى مصطلح المقام حقّه من البيان، وقلّبه على

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الإِعْجَازُ الْبَيَّانِي أَنْمُودَجًا)

وجوهه وخُلُص من ذلك إلى أن القرآن معجز من هذه الناحية، وأن إعجازه في نظمه، ووضع نظريته لتكون المقياس الذي تقاس به بلاغة القرآن الكريم، ولكنهم من الناحية التطبيقية لم يأتوا بما فيه الكفاية. فالجاحظ لم يعرض إلا لبعض أي القرآن على حسب النص الذي ورد عنه في كتابه الحيوان بقوله: «ولي كتاب جمعت فيه أيا من القرآن لتعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفصول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة»¹⁶.

7 تمحيص المقدمات

إن متصفح كتاب الإعجاز البياني، لابد أن تستوقفه عناية صاحبه بقراءة المقدمات وتقديمات المحققين، كما فعل بالنسبة لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني الذي حققه أحمد صقر القائل بأن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف، إنما هو فيما نعلم كتاب «إعجاز القرآن» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 306 هـ، وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحًا كبيرًا سماه «المعتضد»، وشرحًا آخر أصغر منه، ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» على الواسطي، ثم وضع أبو عيسى الرماني المتوفى سنة 382 هـ كتابه في الإعجاز، فرفع بذلك درجة ثالثة. وجاء القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة 403 هـ فوضع كتابه المشهور «إعجاز القرآن» الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة، ١٢٠ والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطي ولا كتاب الرماني، ولا كتاب الخطَّابي الذي كان يعاصره، وقد أشار إليه الأستاذ عمار ساسي، وأومأ الباقلاني إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما. كما يقول الرافعي، فكأنه هو ابتدأ التأليف في الإعجاز بما بسط في كتابه واتسع، وفي ذلك ما ثبت لنا أن عهد هذا التأليف لا يُردُّ في نشأته إلى غير الجاحظ.

كان العرب قد بلغوا لعهد القرآن مبلغهم من تهذيب اللغة ومن كمال الفطرة، ومن دقة الحسِّ البياني، حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلًا واحدًا باجتماعهم على

بلاغة الكلمة وفصاحة المنطق. وهذا أمر ثابت ليس فيه منازعة ولا فساد ولا تنوء، ولم يظهر في أمة ظهوره في جاهلية العرب الأولى قبل الإسلام، وفي جاهليتهم الثانية من بعده، حين استفحل أمر الفرق الإسلامية واستحرَّ الجدال بينهم، فأفسدوا عقولهم وأسقطوا مروءتهم إلا خواصَّ، واقتحموا تلك الخصومات حتى يَبس ما بين بعضهم إلى بعض، وإن كان ليس بينهم إلا الدين والعقل. فجاء القرآن الكريم أفصح كلام وأبلغه لفظاً وأسلوباً ومعنى؛ ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية التي كانت معقودة بالألسنة يومئذ.

لقد قسم الباقلاني البلاغة إلى ثلاث طبقات وقال ن ما كان في اعلاها معجز وهو بلاغه القران ثم عرف البلاغ بان ايصال المعنى الى القلب في احسن صوره من اللفظ واعلاها طبقه من الحسن بلاغه القران ثم قسم البلاغة الى عشرة اقسام. ص.11.

ومر الناس على ذلك إلى أوائل المائة الثالثة، فلما فشّت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة؛ وخيف أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد أو العادة، وعلى الحُشوة من أهل الكلام الذين لا رسوخَ لهم في اللغة ولا سَلِيقةَ لهم في الفصاحة ولا عرق لهم في البيان، مسّت الحاجة إلى بسط القول في فنونٍ من فصاحته ونظمه ووجه تأليف الكلام فيه، فصنّف أديبنا الجاحظ المتوفى سنة 255هـ كتابه «نظم القرآن»، وهو فيما ارتقى إليه بحثنا أولُ كتاب أُفردَ لبعض القول في الإعجاز أو فيما يرئى القول به، وقد غَضَّ منه الباقلاني بقوله: إنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله؛ ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى «أي الإبانة عن وجه المعجزة». وذهب عن الباقلان بأن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه في أوائل القرن الثالث، غير الذي دعاه هو إلى التصنيف في أواخر القرن الرابع، فلم يحاول الجاحظ أكثر من توكيد القول في الفصاحة والكشف عنها على ما يفي بالابتداء في هذا المعنى؛ إذ كان هو الذي ابتدأ التأليف فيه ولم تكن علوم البلاغة قد وُضعت بعد.

خاتمة

مَسَاعِي عَمَّار سَاسِي فِي التَّأْصِيلِ الْمَفْهُومِي وَالْمَصْطَلَحِي: الْمَقَاصِدُ وَالْمَنْهَجُ (الإِعْجَازُ الْبَيَّانِيُّ أَنْمُودَجًا)

إن الأرضية التي تمحور حولها تصور عمار ساسي الفقهي اللغوي، هي نشوء علوم العربية في أحضان القرآن الكريم. وذلك .كما قال الأستاذ محمد العيد رتيمة في تقديمه لكتاب أستاذنا الجليل " الإعجاز البياني في القرآن: دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات ". تقربا لفهمه وصونا للسانه واكتنافه لبعض أسراره. ووضعه للبلاغة على أساس أنها معرفة لإعجاز القرآن الكريم، وبيان سر إعجازه.

يظهر أهم ما يربط بين البيان والإعجاز، واعتبر البيان يتجلى في النموذج الأمثل للسان العربي المبين، القرآن الكريم، من خلال الصوت اللغوي والمفردات والتراكيب بشقيها الثابت والمتحرك باعتبارها جميعا وسائل بيان ذات وظائف بيانية جزئية بالفصل ووظائف بيانية كبرى بالوصل. وهذه الفكرة التي انتبه إليها محمد العيد رتيمة ذات شأن وبحاجة إلى الإمعان نظرا لهذه القيمة الحصيفة. إن الإعجاز البياني سبيل الحجة إلى الإيمان بالله وكتابه ورسوله، ينحوها كل من تأمل فيها، وأن الله جاءهم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُ النَّاسِ لِلْحَقِّ كَاذِبُونَ. والمنهج الذي اعتمده الأستاذ ساسي هو مقارعة الآراء. وقد مثلنا لهذا بعينة مما أورده حول آراء الباقلاني في الجاحظ وشيخه النظام، وحول ما ذكره كل من الرافي وأحمد صقر وما وقع فيه هذا الأخير من التقويل. ويتصف عرضه للمرجعية التي اعتمدها في إيضاح مصطلح الإعجاز البياني تسميةً ومفهوماً، قلنا يتصف بأصالة بحيث فتح أبواب النقاش على مصرعيه أمام جل العلماء الذين اشتركوا فيه تاريخيا أي تعاقبيا وتعاصرياً.

هوامش ومراجع

¹ عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن: دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات، دار المعارف للإنتاج والتوزيع، بوفارك . البليدة (الجزائر)، 2003، ص.13.

² مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به درويش الجويدي، ط.3، المكتبة العصرية، بيروت، 2003، ص.67. التسطير من وضعنا

- ³ عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأثير، دار المعارف بمصر (سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية 63)، القاهرة، 2003، ص.80.
- ⁴ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه واعتنى به درويش الجويدي، ط.3، المكتبة العصرية، بيروت، 2003.
- ⁵ المرجع نفسه، ص.184 . 185.
- ⁶ عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن: دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات، دار المعارف للإنتاج والتوزيع، بوفارك . البليدة (الجزائر)، 2003، ص.21.
- ⁷ المرجع نفسه، ص.22.
- ⁸ المرجع نفسه، ص.22.
- ⁹ المرجع نفسه، ص.21.
- ¹⁰ عمار ساسي، المدخل إلى النحو والبلاغة: في إعجاز القرآن الكريم، دار علم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع . جدار للكتاب العالمي، عمان (الأردن)، 2007، ص.78.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص.78.
- ¹² عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن: دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات ...، ص.33.
- ¹³ ينظر: المرجع نفسه، ص.33.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص.35.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص.35.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص.36.